﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: 15 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

اللهُ الَّذي قدَّرَ أطوارَ خلقِ الإنسانِ هو الَّذي قدَّر موتَه ثمَّ بعثَه

لَمّا كانت إماتةُ ما صارَ هكذا - بعد القوّةِ العظيمةِ والإدراكِ التّامّ - من الغرائب، وكان وجودُها فيه وتكرارُها عليه في كلِّ وقتٍ قد صيَّرها أمرًا مألوفًا، وشيئًا ظاهرًا مكشوفًا، وكان عُتوُّ الإنسانِ على خالقِه وتمرُّدُه ومخالفتُه لأمرِه نسيانًا لهذا المألوفِ كالإنكارِ له، أشارَ إلى ذلك بقولِه تعالى مُسبِّبًا مبالغًا في التَّأكيد: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، ولمّا تقرَّر بذلك القُدرةُ على البعثِ تقرُّرًا لا يشكُّ فيه عاقل، قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾، ولمّا بيَّنَ لهم أنَّ فكرَهم فيهم يكفيهم، ولاعْتقادِ البعثِ يعنيهم، أتبعَه دليلًا آخرَ بالتَّذكيرِ بخلقِ ما هو أكبرُ منهم، وبتدبيرِهم بخلقِه وخلقِ ما فيه من المنافع لاسْتبقائهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرَآئِقَ﴾: (طَرَقَ) أَرْبَعَةُ أُصولٍ، أحَدُها: الإتْيانُ مَساءً، والثّاني: الضَّرْبُ، والثّالِثُ: جِنْسٌ مِن اسْتِرْخاءِ الشَّيْءِ، والرّابِعُ: خَصْفُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ[2]، يَطْرُقُ طُروقًا فهو طارقٌ، والطَّريقُ: السَّبيلُ الَّذي يُطرَقُ بالأرْجُل؛ أيْ: يُضرَب، قال تعالى: ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [طه: 77]، وعنه اسْتُعيرَ كلُّ مَسْلكٍ يسلُكه الإنسانُ في فعلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا، قال تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 119 - 120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرق).

﴿٦٣﴾ [طه: 63]، والطَّريقُ: يُذَكَّرُ ويؤنَّث، تقول: الطَّريقُ الأعظمُ والطَّريقُ العُظمى، وجمعُ طريق: طُرُق، وجمعُ طريقةٍ طرائق، قال تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجنّ: 11] إشارةٌ إلى اختلافِهم في درجاتِهم، يُقال: طارَقَ الرَّجُلُ بين نعلَيْه، إذا أطبقَ نعلًا على نعلٍ، وطارقَ الرَّجُلُ بين ثوبَيْن، إذا لبس ثوبًا على ثوبٍ، وهو الطِّراق[1]، وأطباقُ السَّماء، يُقال لهم: طرائق[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: سبع سماوات[3]، كلُّ سماءٍ طريقة، قيل: سُمّيتْ طريقةً لتَطارُقِها، وهو أنَّ بعضَها فوقَ بعض[4].

2) ﴿غَٰفِلِينَ﴾: (غَفَلَ): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وربَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ[5]، غَفَلَ يغفُلُ غَفْلَةً وغُفولًا من باب (دخل)، والغَفْلَةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظ، يُقال: غَفَلَ فهو غافِلٌ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، وأغْفَلَ الشَّيءَ: تركَهُ على ذُكْر[6]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾؛ أيْ: ساهينَ عن حفظِه وإمساكه السَّماواتِ أن تقعَ فوقَهم بقدرتِنا، أو غافلينَ عن النّاسِ فيما يُصلحُهم، وبفتحِ أرزاقِهم وبركاتِهم من السَّماء، وبما ينفعُهم بأنواعِ منافعِها[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى عبادَه فيقول: إنَّكم بعدَ ذلك الخَلْق ونَفْخِ الرّوحِ لميِّتونَ في أحدِ أطوارِكم وتنقلاتِكم، ثمَّ إنَّكم يومَ القيامةِ تُبعثونَ

بعثُ النّاسِ بعد موتِهم، وعلمُ اللهِ بهم حقٌّ لا رَيْبَ فيه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (طرق).
(2) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (طرق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 12.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 56، ولفظه: "كلُّ شيءٍ فوقه شيء، فهو طريقة"، الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (طرق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(6) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 28، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 650.

من قبورِكم، فتُجازونَ بأعمالِكم، حَسَنِها وسَيِّئِها، ولقد مننّا عليكم أن خَلَقْنا فوقكم سبعَ سماواتٍ طباقًا، كلُّ طبَقةٍ فوقَ الأخرى، فيها حفظٌ لكم ورعايةٌ لمصالحِكم وتحقيقُ منافعِكم، وكما أنَّ خلقَنا عامٌّ لكلِّ مخلوق، فكذلك علمُنا محيطٌ بما خلَقْنا، فلا نُغفِلُ مخلوقًا، ولا ننساه، ولا نخلُقُ خلْقًا فنضيِّعه، ولا نَغفُلُ عن السَّماءِ فتقع على الأرض، ولا يعزُبُ عنّا ذرةٌ في لُجَجِ البحار، وجوانبِ الفَلوات، ولا دابّةٌ إلّا سُقْنا إليها رزقَنا[1].

وترشدُ الآيات الكريمةُ إلى أنَّ الله تعالى كثيرًا ما يَقْرن بين خلقه وعلمه، كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 14]، وقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: 81]؛ لأنَّ خلق المخلوقات من أقوى الأدلّة العقليّة على عِلم خالقها وحكمته، وإلى بيانِ قدرة الله تعالى وعظمتِه في خلق السّماوات طرائق، وعدم غفلته عن سائر خلقه، فسار كلُّ شيءٍ لما خُلق له، فثبت الكونُ وانتظمت الحياة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ وإيثارُها دون الفاء:

العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ في موضعِه؛ لأنَّه يفيدُ تراخيَ الموتِ بعد خَلقِهم في أحسنِ خِلْقة، ومنهم مَنْ يردُّه اللهُ تعالى إلى أسفل سافلين، ويستمرّون إلى أجلٍ مُسمًّى، ضلّوا فيه أو اهْتدوا، أخلَصوا دينَهم لله أو كفروا، وبعثَ فيهم الرُّسُلَ مُبشِّرين ومُنذِرين، إنَّهم بعد هذا الدَّورِ لميِّتون[3]، ورتبةُ الموتِ وإنْ كانت بعد ما سبقَها من أطوارِ الخلْق، لكنَّ ذكرَها هنا بذلك التَّرتيب؛ لأنَّ ذِكْرَ حقيقةِ الموتِ توطئةٌ للجملةِ بعدَه، وهي قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، وهو المقصود.

تـراخـي المـوتِ بعد تمامِ خلْقِ الإنـسـان، وهو توطئةٌ للبعث

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 492.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 492، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 511.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 26.

غرضُ تتابعِ المؤكِّدات:

جاءَ تتابعُ المُؤكِّداتِ بـ (إنَّ) والجملةِ الاسْميَّة ﴿إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ واللّام المُزحلَقةِ في ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ مع كونِهم لا يرتابون في هذا الخبر؛ لأنَّهم لَمّا أعرضوا عن التَّدبُّرِ فيما بعد هذه الحياة، كانوا بمنزلةِ مَن يُنكرون أنَّهم يموتون[1]، ومن أغراضِ هذا التَّوكيد اللَّفت إلى ألّا يغترَّ النّاسُ بغرورِ هذه الدُّنيا، وأنَّها إلى فناءٍ مهما طالت، وأنَّ الحياةَ الآخرةَ هي الباقيةُ في سعادةٍ ونعيم، أو في شقاءٍ وجحيم[2].

الموتُ حقيقةٌ كبرَى يغفُلُ عنها كثيرٌ من النّاس مُغترّين بدنياهم

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ للواحد البعيد:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: بعد ما ذُكِرَ من الأمورِ العجيبةِ في أطوارِ خَلْقِ الإنسان، حَسَبما يُنبئ عنه ما في اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من معنَى البُعدِ المُشعِرِ بعلوِّ رتبةِ المُشارِ إليه، وبُعدِ منزلتِه في الفضلِ والكمال، وكونِه بذلك مُمتازًا مُنزَّلًا المنزلةَ الحسّيَّة[3]، وفي التَّعبير عمّا ذُكر مِن قبل باسم الإشارة المُفرد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيجاز شديد، وفي الإفراد تنبيهٌ على أنّ الإنسان عند موته تظهر له الدّنيا على حقيقتها؛ مِن أنّها كساعةٍ قضاها ثم تركها.

علوّ رُتبةِ خلْقِ الإنسانِ بأطوارِه السّابقة

غرضُ تقديمِ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر:

تقدَّمَ قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر ﴿لَمَيِّتُونَ﴾؛ لبيانِ أهميَّةِ عجائبِ خلْقِ الإنسانِ في أطوارِه المُتلاحِقة، وشرفِ ما نالَه الإنسانُ من رعايةِ خالقِه وعظيمِ تدبيرِه لأمرِه منذ أن كان نطفةً في رحِمِ أُمِّه، فإنَّ الَّذي خلقَه ورعاه في كلِّ تلك المراحلِ العجيبةِ هو سبحانه الَّذي حكمَ بموته، فالمصيرُ إليه ﷻ؛ أي: الَّذي قدَرَ على خلْقِ الإنسانِ قادرٌ على أن يُنهيَ رحلةَ حياتِه تلك بالموت ثمَّ البعث، فخلقُ الإنسانِ

أطوارُ خلْقِ الإنسانِ العجيبة تنتهي بالموت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 26.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5055.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 53 - 54.

في بديعِ أطوارِه توطِئةٌ لموتِه، ثمَّ بعثِه، وفيه أيضًا: أن موت الإنسان له حكمة بل حِكَم؛ كخلقه في الحياة الدنيا؛ فكان مرجع اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ كالمقيس عليه، وقوله: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ كالمقيس.

بلاغةُ الإدماجِ في الآية:

إبطالُ الشِّركِ، والتَّذكيرُ بالموتِ بإشارةٍ سريعة

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ إدماجٌ في أثناءِ تَعدادِ الدَّلائلِ على تفرُّدِ اللهِ بالخلْقِ من مبدئه إلى منتهاه، وعظيم رعايته الخاصَّة بهذا الإنسانِ في جميعِ مراحلِ خَلْقِه الَّتي عُبِّر عنها باختزالٍ شديدٍ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهذا التَّفرُّدُ بالخَلْقِ على اخْتلافِ أصنافِ المخلوقاتِ عامَّة، وذلك لقصدِ إبطالِ الشِّرك، والتَّذكيرِ بالموتِ الَّذي يُعدُّ حقيقةً بيِّنةً لا يمكنُ لعاقلٍ إنكارُها، وهي في حدِّ ذاتِها توطِئةٌ لذِكْرِ حقيقةِ البعثِ الَّتي يُنكرُها المشركون[1].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾:

تراخي البعثِ عن الموتِ مدَّةً لا يعلمُها إلّا الله

العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ له موضعُه، لتراخي البعثِ بعد الموتِ وحياةِ البرزخِ مدَّةً طالتْ أو قَصُرت - بالنّسبة لكلِّ ميِّت - لا يعلمُها إلّا اللّهُ تعالى؛ لأنَّ الأجسامَ تبقى في القبور، أو حيث تكونُ في أجزاءٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿۞قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: 50 - 51][2].

غرضُ تتابعِ المؤكِّدات بـ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّة:

خلقُ اللهِ في الإنشاءِ دليلٌ على قدرتِه في الإعادة

جاءتِ (إنَّ) والجملةُ الاسْميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، تأكيدًا للبعث؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لم يخلقْنا عَبَثًا، قال عزَّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: 115]، وأكَّد اللّهُ ﷻ البعثَ لعِظَمِ إنكار أهل الكفر والشِّرك له،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 26.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5056.

وهم مِن المخاطبين بهذه الآيات في المقام الأول، ولقد بالغوا في إنكارِه كشأن الَّذين لا يُؤمنون إلّا بما يُحسّونَ ولا يُؤمنون بالغيب، فبالغَ تعالى في تأكيدِه، وجعل ذلك يومَ القيامة، واللّهُ ﷻ هو الَّذي خلقَ وأبدع، وخَلْقُه في الإنشاءِ دليلٌ على قدرتِه في الإعادة[1].

غرضُ تقديمِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ على الخبر:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ يومَ القيامةِ على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ للتَّنبيهِ على أهميَّةِ هذا اليوم وضرورةِ وجودِه؛ ليتحقَّق فيه كمالُ العدالةِ الإلهيَّة، وأنَّه واقعٌ لا محالة، وليس لإنكارِ المُنكرينَ له أيُّ دليلٍ عقليّ في عدمِه، فالَّذي خلقَ وأبدعَ هو الَّذي قدَّرَ وجودَ هذا اليوم، قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: 51][2].

لـيـومِ الـقيامة أهميَّةٌ عظيمةٌ تُسقِطُ إنكارَ المُنكرين

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تُبْعَثُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أصلُ البَعْث: إثارةُ الشَّيء وتوجيهُه، يُقال: بعثْتُه فانْبعثَ[3]، والبعثُ يومَ القيامة هو إحياءُ النّاس، وإخراجُهم من قبورِهم، وسَوْقُهم إلى مَحْشرِهم، وقولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ قائمٌ على هذا المعنَى؛ أيْ: تُبعثونَ من قبورِكم للحسابِ والمجازاةِ بالثَّوابِ والعقاب[4]، وجاءت صيغةُ المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعله في الفعل ﴿تُبْعَثُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مَنْ خلَقَهم اللّهُ بتلكَ الأطوارِ المتلاحقةِ سيموتون، ثمَّ يُبعثون، لا غَرْوَ في ذلك؛ فهو أمرٌ محسومٌ مجزوم مقطوع به.

إخـراجُ النّـاسِ مـن قـبـورِهـم وسَـوْقُـهـم إلى المحشرِ للحساب

نكتةُ تأكيدِ الموتِ باللّام، وعدم تأكيد البعث:

الموتُ لا يختلفُ فيه اثْنان، وكم من مُخالفٍ في البعث؟! فلِمَ أُكِّدَ المُجمَعُ عليه أبْلَغ تأكيد في قوله تعالى: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾، وتُرِكَ المختلَفُ

عـدمُ الـعـمـلِ للـمـوتِ أوْجـبَ تأكيدَه

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5056.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5056.
(3) الرّاغب، المُفردات: (بعث).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 54.

فيه - في قوله تعالى: ﴿تُبْعَثُونَ﴾ - من تلك المبالغةِ في التَّأكيد؟! إنَّ البعثَ لَمّا تظاهرتْ أدلَّتُه وتضافرتْ، أُبرِزَ في صورةِ المُجمعِ عليه المُستغني عن ذلك، وأنَّهم لَمّا لم يعملوا للموت، ولم يهتموا بأمرِه نُزِّلوا منزلةَ مَنْ يُنكرُه، فأبرزَهم في صورةِ المُنكِرِ الَّذي اسْتبعدوه كلَّ اسْتبعاد[1].

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾:

خـلْـقُ الـعـالَـمِ العُلويِّ حكمةٌ ربّانيّةٌ جليلةٌ

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بالواوِ الَّتي عُطِفَتْ جملتُها على جملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، وجاء هذا العطفُ عَقِبَ قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ للتَّنبيه على أنَّ الَّذي خلقَ هذا العالمَ العلويَّ ما خلقَه إلّا لحكمة، وأنَّ الحكيمَ لا يُهمِلُ ثوابَ الصّالحينَ على حسناتِهم، ولا جزاءَ المُسيئينَ على سيِّئاتهم، وأنَّ جَعْلَه تلكَ الطّرائقَ فوقَنا بحيث نراها ليَدُلَّنا على أنَّ لها صلةً بنا؛ لأنَّ عالمَ الجزاءِ كائنٌ فيها ومخلوقاتُه مُستقِرَّةٌ فيها[2].

غرضُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿وَلَقَدْ﴾:

تأكيدُ قدرةِ اللهِ على خلْقِ ما هو أعظمُ من خلْقِ الإنسان

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ وهي (اللّامُ) الموطِّئةُ للقَسَم، و(قد) حرفُ التَّحقيق؛ لإثباتِ الدَّليلِ اليقينيِّ على خَلْقِ ما هو أعظمُ وأكبرُ من الإنسان، وبتدبيرهم بخلْقِه وخلقِ ما فيه من المنافع لاستبقائهم[3]، وفي التوكيد لفت إلى عظمة المعنى المُؤكَّد وغرابته في بابه.

نكتةُ إسنادِ الخَلقِ إلى ضميرِ العَظَمة:

الـخـالـقُ من خصائصِ اللهِ وعظَمتِه

في إسناد الخَلق إلى صيغة العظمة في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ إرادةُ تعظيم خَلْق اللهِ المتجلّي في خلقِ سبعِ سماواتٍ طباقًا، وهي أكبرُ

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المَصون: 8/ 325.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 118.

من خلْقِ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، فالخَلْقُ يُسْنَدُ إلى اللهِ لا إلى أحدٍ سواه[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ وتقديمها:

الفوقيَّةُ مظنَّةُ النَّظرِ والتَّأمُّلِ في خلْقِ السّماوات والانْتفاعِ بها

قولُه تعالى: ﴿فَوْقَكُمْ﴾ ظرفُ مكان، والتَّعبيرُ به وتقديمه على المفعول ﴿سَبْعَ﴾ للتَّنبيهِ على وجوبِ النَّظرِ في أحوالِ تلك السّماوات السَّبع؛ للاستدلال بها على قدرةِ الخالقِ لها ﷻ، فإنَّها إمكانُ النَّظرِ إليها والتَّأمُّلِ فيها، ولأنَّ كونَها فوقَ النّاسِ ممّا سهَّلَ انتفاعَهم بها في التَّوقيت، وفي حفظِهم وتيسيرِ شؤونِ حياتِهم[2]، فكان في ذِكْر هذا القيد ﴿فَوْقَكُمْ﴾ تحقيقٌ لغرضَي الاستدلال والامتنان.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿طَرَآئِقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

السّماواتُ طرائقُ بعضُها فوقَ بعضٍ

عُبِّر بـ﴿طَرَآئِقَ﴾ وهي جمعِ (طريقة) المُؤنَّثة في اللَّفظ؛ تنبيهًا على إمكان وسهولة اتّخاذ التّأمّل في تلك الطّرائق سبيلًا إلى معرفة الحقّ والصّواب خصوصًا في القضايا التي هي محلّ إنكارٍ وريبٍ عند أهل الكُفر والشّرك؛ فالاستدلالُ بهذه الطّرائق على إمكان البعث عظيم؛ لأنَّ خَلق السّماوات والأرض أكبر من خَلق الناس، وكذلك الامتنان بما فيها من خير يتنزَّل على أهل الأرض عظيمٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (طرائقَ) صيغةً

وأمّا صيغةُ: ﴿طَرَآئِقَ﴾: فلا جمعٌ لكلمة: (طريقة) في المعاجم إلّا الجَمْعَ: ﴿طَرَآئِقَ﴾[3]، والقرآنُ على هذا عَبَّرَ بجَمْعِ الكثرةِ: ﴿طَرَآئِقَ﴾ معَ أن المُضافَ إليهِ العددَ: ﴿سَبْعَ﴾ يقتضي جَمْعِ قِلَّة؛ لأنّه لا جَمْعَ قِلَّةٍ للمفردِ: (طريقة)، فهل عَبَّرَ القرآنُ به؛ لأجل هذا فقط دونَ غرضٍ آخَرَ؟، هذا ما عليه غيرُ قليلٍ مِن العلماءِ في كلِّ جَمْعِ كثرةٍ ليس له جَمْعُ قِلَّةٍ، وقد عُبِّرَ بجَمْعِ الكثرةِ في موضِعِهِ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 118.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المُفردات: (طرق)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.

الـحـاصـل في دلالة التَّعبير بـ (طرائقَ) صيغةً

والحاصِلُ: أن جَمْعَ الكثرةِ مُتناسِبٌ معَ هذا، وإثباتُ تناسُبِه: لا يَضُرُّهُ مذهبُ مَن قال: إنّ القرآنَ عَبَّرَ بجَمْعِ الكثرةِ في موضِعِ جَمْعِ القِلَّةِ؛ لانعدامِ جَمْعِ القِلَّةِ، وهو يُؤيِّدُ مذهبَ البقاعيِّ من أن انعدامَ هذا الجَمْعِ ليس العلةَ الوحيدةَ للتّعبيرِ بجَمْعِ الكثرةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿طَرَآئِقَ﴾: يُحْتَمَلُ كونُه صفةَ موصوفٍ محذوفٍ؛ أيْ: سماواتٍ طرائقَ، وهذا ما يُفْهِمُه لفظُ البقاعيِّ: ﴿طَرَآئِقَ﴾؛ أيْ: سماواتٍ لا تتغيَّرُ عن حالتِها التي دبَّرْناها عليها إلى أن نُريدَ ... وفيها طَرْقٌ لكواكبِها[1]، وهذا أوْلى وأبلغُ؛ لأنَّ فيه استحضارًا للسَّموات ولكونها طرائقَ مَعًا[2]، وهو أقوى وأبلغُ من الوجهِ الثّاني الآتي ذِكْرُهُ.

ويحتملُ ألّا يكونَ كذلك، وذلك على تفسيرِ (الطّرائقِ) بما ذكَرَهُ ابنُ عاشورٍ في قوله: "والطرائقُ: جَمْعُ طريقةٍ، وهي اسمٌ للطريقِ، تُذَكَّر وتُؤنَّث، والمُرادُ بها هنا: طرائقُ سَيرِ الكواكبِ السّبعةِ، وهي أفلاكُها؛ أي: الخطوطُ الفرضيّةُ التي ضبَطَ النّاسُ بها سُموتَ سَيْرِ الكواكبِ، وقد أُطْلِقَ على الكوكبِ اسمُ (الطّارقِ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطّارق: 1] من أجل أنّه ينتقِلُ في سمتٍ يُسمَّى طريقةً؛ فإنَّ السّايرَ في طريقٍ يُقالُ لهُ: طارق، ولا شَكَّ أنَّ الطَّرائقَ تَسْتَلْزِمُ سائراتٍ فيها؛ فكان المعنى: خلقْنا سيّاراتٍ وطرائقَها"[3].

معنَى الواوِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

مَـن خلَـق شيئًا عـجيبًا بـديعًا كـيـف يـغـفـل عنه؟

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ للحال، وجملتها

(1) وهذا ما عليه أكثرُ المفسرينَ، مَثَلًا: قال الطبريُّ: "يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: ولقد خلقنا فوقكم أيها النّاسُ سبعَ سماواتٍ، بعضُهن فوقَ بعضٍ، والعربُ تُسمِّي كلَّ شيءٍ فوقَ شيءٍ طريقةً، وإنما قيل للسموات السبع: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾، لأن بعضَهُنَّ فوقَ بعضٍ، فكلُّ سماءٍ منهن طريقةٌ"، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 17/ 26، ونقَل عن ابن زيد - مِن السلف - أنه قال: الطرائقُ السماواتُ، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 17/ 27.

(2) قال البقاعيُّ: "ومعَ كونِ السماواتِ مطارقة بعضُها فوقَ بعضٍ فهي طرقٌ للملائكةِ، يتنزَّلُون فيها بأوامرِهِ ﷻ"، انتهى مِن نظم الدُّرر: 5/ 190، كأنَّ البقاعيَّ بكلمتِه هذه يلفتُ إلى عظمةِ المعنى على وجهِ تقديرِ موصوفٍ محذوفٍ، هو السماواتُ.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.

في موضع الحال؛ أيْ: والحالُ أنَّنا ما كنّا عن الخَلْقِ غافلينَ[1]، ونظمُ معنى هذه الجملة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ حالًا يبرز الغفلة التي يقع فيها أهل الكفر والشِّرك؛ فإنَّهم بإنكارهم البعث ونحوه من توابع السّاعة يُنزِّلون الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - منزلةَ مَن غفَل عن خلْقِه رحمةً وعدلًا، وحسابًا وعقابًا وثوابًا، وكيف يخلقهم ذلك الخلق البديع ثم يغفل عنهم؟!.

دلالةُ النَّفْيِ ودخولِه على فعلِ الكَوْنِ:

كمالُ العنايةِ الرَّبّانيَّةِ بالخلْقِ ورعايةِ مصالحِهم

نَفْيُ الغَفْلةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ كنايةٌ عن العنايةِ والملاحظة، فأفادَ ذلك أنَّ في خَلْقِ الطَّرائقِ السَّماويَّةِ لِما خُلقَتْ له لُطفًا بالنّاس أيضًا، إذْ كانَ نظامُ خَلْقِها صالحًا لانتفاعِ النّاسِ به في مواقيتِهم وأسفارِهم في البَرِّ والبَحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97]، وأعْظَمُ تلكَ الطَّرائقِ طريقةُ الشَّمسِ مع ما زادتْ به من النَّفعِ بالإنارةِ وإصلاحِ الأرضِ والأجساد؛ فصارَ المعنَى: خلَقْنا فوقَكم سبعَ طرائقَ لحكمةٍ لا تعلمونَها، وما أهملْنا في خَلْقِها رَعْيَ مصالحِكم أيضًا[2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ ودلالتها:

الخَلْقُ كلُّهم محلُّ رعايةِ اللهِ، وواجبُهمُ الإيمانُ باللهِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ للجِنس؛ أي: اسْتغراقِ الخَلقِ بعمومِه ممّا يتناولُ جميعَ المخلوقات: الإنس والجنّ والحيوانات والسّماوات السَّبع، وكلّ شيءٍ تتناولُه كلمةُ الخَلْق؛ ذلك أنَّ قولَه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾؛ لأنَّكم مخلوقاتُنا جميعُكم، فنحنُ نعاملُكم بوصفِ الرُّبوبيَّة، وفي ذلك تنبيهٌ على وجوبِ الشُّكرِ على الخَلْق، والإقلاعِ عن الكُفْر[3]، ويجوزُ أن تكونَ (أل) للعَهْدِ، على أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27 - 28.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 28.

المُرادَ بالخَلْقِ المخلوقُ المذكور، وهو السّماوات السَّبع؛ أيْ: نحفظُها عن الزَّوالِ والاخْتلالِ ونُدبِّرُ أمرَها[1].

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ على الخبر:

أهميَّةُ الخلقِ عندَ خالقِهم، وتمامُ رعايتِه لهم

تقدَّمَ شِبْهُ الجُملة ﴿عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ على خبر الكون ﴿غَٰفِلِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ للتَّنبيهِ على أهميَّةِ الخَلْقِ عند خالقِهم ﷻ، وأنَّهم في رعايتِه، فهو ﷻ يعاملُهم بوصفِه الرَّبّ الَّذي يُربّي عبادَه بما يُصلحُ شؤونَهم ويرعَى مصالحَهم، وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى ضرورةِ معاملةِ الخَلْقِ خالقَهم بالشُّكرِ والإقلاعِ عنِ الكفر[2]، وكذلك كيف يُظنُّ أنَّ الخالقَ يترك الخَلْق بعد موتِهم سُدى، مع أنَّ فيهم المطيعَ الَّذي لم يوفِّه ثوابَه، والعاصيَ الَّذي لم يُنزِلْ به عقابَه؟! أم كيف لا يقدرُ على إعادتِهم إلى ما كانوا عليه بعدَ ما قدَرَ على إبداعِهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا؟![3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مادَّةً وصيغة:

انتفاءُ تركِ الخلقِ دون رعايةِ اللهِ وحفظِه

الغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظ[4]، وهذا المعنَى يُنزّهُ اللهُ ﷻ عنه، والتَّعبيرُ بـ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ هنا في السّياق يعني: (ما كنّا مُهملينَ لخَلْقِنا ساهينَ عن حفظِه من أن تقعَ فوقَهم السّماوات؛ بل نجعلُها مصدرَ رزقِهم ونفعِهم بها بأنواعِ المنافعِ العظيمةِ المختلفة)[5].

وفي التعبير بـ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ تعريض بغفلة مُنكري البعث وغيره مما يتعلّق بالساعة - عن كمالات الله تعالى - كمالات جلاله وجماله، فمَن أنكر قدرة الله على البعث كمَنْ أنكر أنّه ليس الخالق لهذا الخلق.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 28.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 120.
(4) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

وصيغةُ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ على وزنِ (فاعلينَ) تقتضي الحدوث؛ أيْ: ما كنّا عن الخَلْقِ بمُحدِثينَ ما يضرُّهم ويوقعُهم في الحرَجِ وانْتفاءِ المنافع.

وإن كان موقعُ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ خبرًا لاسْمِها المَنفيِّ مع تمامِ جُملتِها يدلُّ على الثُّبوت؛ أيْ: ثبوتِ انْتفاءِ الغَفْلةِ عن الخَلْق.

بلاغةُ الكنايةِ في نَفْيِ الغَفْلة:

نَفْيُ الغَفلةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ كنايةٌ عن العنايةِ والملاحظة، فأفادَ ذلكَ أنَّ في خَلْقِ الطَّرائقِ السَّماويةِ لما خُلِقتْ له لُطفًا بالنّاس أيضًا؛ إذْ كان نظامُ خَلْقِها صالحًا لانْتفاعِ النّاسِ به في مواقيتِهم وأسفارِهم في البَرِّ والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97]؛ فصار المعنَى: خلَقْنا فوقَكم سبعَ طرائقَ لحكمةٍ لا تعلمونَها، وما أهْمَلْنا في خَلْقِها رَعْيَ مصالحِكم أيضًا[1].

نَفْيُ الغَفْلةِ عن الخَلْق؛ كمالُ العنايةِ بهم

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في ختام الآية:

جاءَ الإظهارُ في موضعِ الإضمارِ - في ختام الآية - من قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ دون أن يُقال: (وما كُنّا عنكم غافلينَ)؛ لما يُفيدُه المُشتقُّ من معنَى التَّعليل؛ أيْ: ما كُنّا غافلين؛ لأنَّكم مخلوقاتُنا، فنحن نعاملُكم بوصفِ الرُّبوبيَّة، وفي ذلك تنبيهٌ على وجوبِ الشُّكرِ والإقلاعِ عن الكفر[2]، في مقابلِ الاعْتناءِ الفائقِ بشأنِكم والقيامِ الدّائمِ برعايتِكم وحفظِكم في جميعِ أحوالِكم[3].

اللهُ تعالى يعاملُ الخلْقَ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ ومن واجبِهم الإيمانُ والشُّكر

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغَفْلة واللهْو والسَّهْو:

لَهى عن الشَّيء تركَه سهوًا أو تشاغُلًا، وأصلُه من اللهْوِ؛ وهو ميلُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27 - 28.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 28.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

الانْفعالِ والمطاوعة، واللهوُ: ما يشغَلُ الإنسانَ عمّا يَعْنيه[1]، ولا لهوَ إلّا لَعِبٌ؛ أي: اللهْوُ لعِبٌ لا يعقبُ نفعًا، وسُمّيَ لَهْوًا؛ لأنَّه يشغلُ عمّا يعني، من قولِهم: ألْهاني الشَّيءُ؛ أيْ: شَغَلني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: 1].

الغَفْلةُ أعمُّ من السَّهْوِ واللّهْو، والأخيرُ يكون مع اللَّعِبِ والانْشغالِ عمّا يَعْني ويُفيد

والغَفْلةُ: سَهْوٌ يَعْتري الإنسانَ من قلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظ، وأغْفلَ الشَّيءَ: تركه على ذُكْرٍ له، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، والغَفْلةُ تكون عمّا يكون، تقول: غَفَلت عن هذا الشَّيءِ حتَّى كان، فيجوزُ أن تغفُلَ عنه ويكون، والغَفْلةُ تكونُ عن فعلِ الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، والغفلةُ: عدمُ حضورِ الشَّيء في البالِ بالفعل.

والسَّهْوُ: عدمُ التَّفطُّنِ للشَّيءِ مع بقاءِ صورتِه أو معناهُ في الخيال، أو الذِّكرِ بسببِ اشْتغالِ النَّفْسِ والتفافِها إلى بعضِ مهمّاتِها، والسَّهْوُ يكون عمّا لا يكون، لا تقولُ: سَهوْتُ عنه حتَّى كان؛ لأنَّكَ إذا سَهَوْتَ عنه لم يكن، ولا يجوزُ أن يكونَ السَّهوُ عن فعلِ الغيرِ كالغفلةِ الَّتي تكونُ عن فعلِ الغير.

وبهذا تكونُ الغَفلةُ أعمَّ من السَّهْوِ، ولَمّا كان ذلك من لواحقِ القوى الإنسانيَّة كان مسلوبًا عن الملائكة[2].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 470، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 204.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 388 - 389، والرّاغب، المُفردات: (غفل، سها)، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/ 25، 26، 143، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 260.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»